التشبيه بين العلمية والادبية

الدكتور مهدي صالح السامرائي
مدرس في كلية التربيـة

خلاصـة البحـث :

١ ــ ان السعي وراء طلب معنى العبارة كان عاملا مهما في تغليب الطابع العلمي الجاد في مباحث البلاغة كلها ومنها التشبيه .

٢ ــ في البحث عرض لطائفة من حدود البـلاغيين والكشف عن طبيعتها العلمية الجادة التي لا تنسجم مع الروح الادبية .

٣ ــ وفي البحث ايضا عرض لطريقة البلاغيين في تصنيف فنون التشبيه وبيان ان هذا التصنيف يقوم على مبدأين لا يخدمان البلاغـه في شيء ، هذان المبدءان : التقسيم في ضوء اعتباراته ، والتحليل .

٤ ــ وختمت البحث ببيان ما يجب ان تكون عليه الدراسـة البلاغية لفن التشبيه .

تختص هذه المقالة بالاجابة على هذه الاسئلة :

كيف درس البلاغيون التشبيه ؟ وما هي المفـاهيم التي تخضع لها دراساتهم ؟

ما قيمة هذه الدراسة من الوجهة الفنية ؟

كيف يجب ان يدرس التشبيه ؟

١ ــ يدرس البلاغيون التشبيه في محيط مقفل ضمن دائرة كبيرة هي دائرة علم البيان . وهم اذ يدرسون هذا الموضوع فـانهم

يحرصون على ان تكون دراستهم منسجمة مع مفاهيم علم البيان ، ذلك لان مباحث التشبيه جزء من علم البيان ، والجزء عادة منسجم ومؤتلف في وجوده مع الكل ، وعندما يتحرك قلم البلاغي في مباحث التشبيه فان عقله يكون مشدودا في مفاهيم علم البيان .

ولما كان الامر كذلك فانه من الضروري ان ينظر الباحث الى التشبيه من خلال مفاهيم علم البيان .

ان التعريف المشهور لعلم البيان هو (علم يعرف به ايراد المعنى الواحد بطرق مختلفة في وضوح الدلالة عليه)[1] ، وقال سعدالدين التفتازاني انه (ملكة او اصول يقتدر بها على ايراد كل معنى واحد يدخل في قصد المتكلم وارادته بتراكيب يكون بعضها اوضح دلالة عليه من بعض)[2] .

فالغاية الاساسية من علم البيان التعرف على الطرق المختلفة التي يؤدي بها المعنى الواحد ، وهذا الامر ينطوي على فكرة ان المعنى جوهر ثابت في العبارة لا تؤثر فيه اختلاف طرق الاداء ، فالمعنى الكامن وراء قولنا : انا يائس يساوي المعنى الكامن في قول الشاعر

عشية مالي حيلة غير اني
بلقط الحصى والخط في الترب مولع
اخط وامحو الخط ثم اعيده
بكفي والغربان في الدار وقّع

فما انت بواجد في معنى هذين البيتين ما يزيد على المعنى في العبارة السابقة .

ثم ان وراء اهتمام البلاغيين بطرق تركيب العبارة فكرة الاهتمام بالمعنى ، او بمعنى آخر ان اهتمام البلاغيين بالمعنى هو الذي دفعهم الى الجري وراء طرق التركيب للعبارة[3] .

ولا شك ان السعي وراء المعنى كان عاملا مهما في تغليب الطابع العلمي الجاد على الطابع الادبي في مباحث التشبيه ، وانه بمقدور

الباحث ان يشعر بهذا في تعريف البلاغيين للتشبيه ، وفي تقسيماتهم له ، ومعالجتهم لنصوصه .

قال الرماني في تعريف التشبيه : (التشبيه هو العقد على ان احد الشيئين يسد مسد الآخر في حس او عقل)[٤] .

وقال ابو هلال العسكري : (التشبيه الوصف بان احد الموصوفين ينوب مناب الآخر في حس او عقل)[٥] .

وقال ابن رشيق القيرواني : (التشبيه صفه الشيء بما قاربه وشاكله من جهة واحدة او جهات كثيرة لا من جميع جهاته لانه لو ناسبه كلية لكان اياه)[٦] .

وقال القزويني في تعريف التشبيه لغة (التشبيه الدلالة على مشاركة امر لآخر في معنى)[٧] . واصطلاحا هو (ما لم يكن على وجه الاستعارة التحقيقية ولا الاستعارة بالكناية والتجريد ...)[٨] .

ان نظرة دقيقة في هذه الحدود تكشف عن مفاهيم علمية فقط ولا نحس باثر لوجود المفاهيم الفنية ، فتعريف الرماني مبني على مبدأي المساواة والاستعاضة ، فليس التشبيه ، عنده ، سوى عقد على ان احد الطرفين يسد مسد الآخر بشهادة الحس او العقل .

انني لا انفي ان التشبيه يتضمن هذين المبدأين ، ولكني اقول : ان هذين المبدأين ليسا من اختصاص التشبيه الرفيع ، فكل الوان التشبيه على تفاوتها في الجودة والرداءة تقوم على هذين المبدأين ، واذا كان الامر كذلك فما جدوى النظر الى فنون التشبيه من هذه الزاوية المشتركة ؟.

وثمة شيء آخر هو : الا يمكن القول بان التشبيه يتضمن مبدأي المساواة والجمع او المقارنة ، فليست هناك استعاضة بل هناك جمع ومقارنة ، بمعنى بان الشخص المشبه لا يريد ابدا ان هذا يسد مسد هذا ولكنه يريد ان يجمع هذا الى هذا .

وتعريف العسكري : (التشبيه الوصف بان احـــد الموصوفين ينوب مناب ...) امتداد لتعريف الرماني ، ويتوجه اليه من الاعتراض ما توجه الى تعريف الرماني .

على اننـــا لو حولنـــا النظر الى قول ابن رشيق القيرواني : (التشبيه صفة الشيء ، بما قاربه وشاكله ...) لوجدناه خاضعا لمبدأ آخر هو مبدأ الوصف ، فالمتكلم يصف المشبه بصفة واحدة او جملة اوصاف من المشبه به ، فعندما نقول : (عمر كالاسد) فاننـــا نصف عمر بوصف من اوصاف الاسد وهو (الشجاعة) . وقد نصف المشبه باكثر من وصف من اوصاف المشبه به .

لا شك ــ من الناحية العقلية ــ ان الشيء لا يشبه الشيء من جميع جهاته ، فلو انعدم الفارق اتحد الطرفان [٩] .

على ان سؤالا يخطر على البال وهو يطلب الاجابة ، هـــذا السؤال :

هل ان عبارة (زيد كالاسد) مساوية لعبارة زيد شجاع ؟

ان كان القصد من عبارتهم زيد كالاسد وصف زيد بالشجاعـة فقط دون النظر الى اوصاف الاسد الاخرى فان العبارة الاولى تساوي العبارة الثانية من الناحية العقلية ويترتب على هذا انه ليس للتشبيـه فضل على العبارة الاعتيادية .

ولكنا نعلم بشهادة الوجـــدان ان للتشبيه الفني قوة آســرة لا نجدها في العبارات الاعتيادية وان للتشبيه فضلا ومزية . وسبب هذا الفضل اننا في التشبيه امام صورتين ، صورة سالبة منفعلـة هي صورة المشبه وصورة فعالة هي صورة المشبه به .

والمشبه به يضفي على المشبه كل ما يناسبه من اوصاف ومعان ، واستطيع ان اقول ان الاوصاف التي تبدو في الظاهر غـير مناسـبة للمشبه تعمل لا شعوريا على خلق جو عام يؤثر في المشبه .

نحن ننظر في هذا التشبيه التقليدي (زيد كالاسد) الى زيد من خلال صورة الاسد الكاملة ، ومن خلال ما يصاحب هذه الصورة من انفعالات • صحيح ان من التشبيهات ماهو علمي كأن تقول : هذا المثلث يشابه هذا وهذا المستطيل نظير ذاك ، ولكن من التشبيهات ما يكون الامر العلمي بها موشحا باوشحة عاطفية وخيالية ، وهذه هي التشبيهات الفنية • فالتشبيهات العلمية تخاطب العقل والتشبيهات الفنية تخاطب العقل والعاطفة •

٢ ــ لا شك ان التشبيهات متفاوتة في الجودة والرداءة • وان الناس يعرفون ذلك بشهادة انفسهم ، على ان هذه المعرفة تتفاوت بين الناس فقد تكون المعرفة ساذجة اذا كان مصدرها الذوق الساذج وقد تكون المعرفة دقيقة اذا صدرت عن ذوق مستنير بالعقل •

والذي نريد ان نعرفه هنا هو الطريقة التي صنف بها البلاغيون هذه التشبيهات • لقد قسم الرماني التشبيه الى قسمين عامين فقال : (التشبيه على وجهين : تشبيه بلاغة وتشبيه حقيقة ، فتشبيه البلاغة كتشبيه اعمال الكافرين بالسراب ، وتشبيه الحقيقة ، نحو : هذا الدينار كهذا الدينار •••)[١٠] •

وقال ابو هلال العسكري في تقسيم التشبيه :

(والتشبيه على ثلاثة اوجه : فواحد منها تشبيه شيئين متفقين من جهة اللون مثل تشبيه الليلة بالليلة والماء بالماء •• والآخر تشبيه شيئين متفقين يعرف اتفاقهما بدليل كتشبيه الجوهر بالجوهر والسواد بالسواد ، والثالث : تشبيه شيئين مختلفين لمعنى يجمعهما كتشبيه البيان بالسحر والمعنى الذي يجمعهما لطافة التدبير ودقة المسلك)[١١] •

وقسم ابن وهب التشبيه الى قسمين :

(تشبيه الاشياء في ظواهرها والوانها ومقدارها كما شبهوا اللون بالخمر والقد بالغصن •••)•

و (تشبيه في المعـــاني كتشبيه الشجاع بالاســـد والجواد بالبحر ..)[١٢] .

وقد قسم الامام عبدالقاهر الجرجاني التشبيه الى قسمين عامين:

احدهما : هذا التشبيه الذي لا نحتاج فيه الى سعي وراءالشبه ولا الى تأول ، فما ان تنظر الى التشبيه حتى ترى الشبه حـــاضرا امامك ، فالشيء يشبه الشـــيء في هذا القسم (من جهـــة الصورة والشكل نحو ان يشبه الشيء اذا استدار بالكرة في وجه وبالحلقـة في وجه آخر . وكالتشبيه من جهة اللون كتشبيه الخـدود بالورود والشعر بالليل ...)[١٣] وقد يجمع وجه الشـبه (الصورة واللون معا كتشبيه الثريا بعنقود الكرم المنور ... وكذلك التشبيه من جهة الهيئة نحو : انه مستو منتصب مديد كتشبيه قامـــة الرجل بالرمح والقداللطيف بالغصن ... وكذلك كل تشبيه جمـع شيئين فيمـا يدخل تحت الحواس)[١٤] .

وثانيهما : التشبيه الذي لا يحضرك وجه الشبه فيه الا بعـــد تأويل وسعي كأن تقول : حجة كالشمس . وذلك اذا كانت الحجـة سافرة لا تحجبها شبهة [١٥] . وقد بين الامام عبدالقاهر ان التـأويل قد يكون قريب المأخذ وقد يكون بعيدا لا يتأتى الا بعـــد تدقيـق النظر وتعميقه [١٦] .

وقد قسم الامام عبدالقاهر التشبيه قسمة اخرى تقوم على فكرة مجردة هي فكرة التعدد والافراد ، فقد يأتي التشبيه مبنيا على افراد كل من المشبه والمشبه به وقد يساق التشبيه سوقا آخر كـأن يكون المشبه والمشبه به متعددين .

ثم عاد الامام وقسم المتعدد الى قسمين :

قسم لا ينظر فيه الى الهيئة الحاصلة من التعـدد كقول امرىء القيس :

كـــأن قلوب الطـــير رطبا ويبسا
لدى وكرهـا العنـــاب والحشف البالي

فالشاعر لا يقصد هيئة معينة من اجتماع الرطب واليـابس من القلوب ولكن يقصد الجمع المحض(١٧) .

وقسم آخر ــ وهو التشبيه المركب ــ يراعي فيه المتكلم هيئـة مخصوصة من اجتماع الاشياء بحيث لو نسخت الهيئـــة جملة ، او بدلت فيها بعض التبديل بطل التشبيه كقول الشاعر :

ولاز ورديـــة تزهـــو بزرقتهـا
بين الريـــاض على حمر اليواقيت
كأنهـا فوق قامـات ضعفن بهـا
اوائل النـــار في اطراف كبريت(١٨)

ولو مضينا مع الزمن بعد الامام عبدالقاهر لالفينـــا البلاغيين يراعون في تقسيماتهم للتشبيه الاعتبارات التي وجدناها عند الامـام عبدالقاهر ، فلقد قسم السكاكي التشبيه باعتبار الكيفيات الماديـــة كالاتصاف بما يدرك بالبصـــر من الالوان والاشكال والمقـــادير والحركات ، اوبما يدرك بالسمع من الأصوات ، او بما يدرك بالذوق في انواع الطعوم ... وقسم التشبيه كذلك باعتبار الكيفيات النفسية مثل الاتصاف بالذكاء والتيقظ والمعرفة والعلم والقدرة (١٩) .

وقسم السكاكي التشبيه طبقا لمبدأي التعدد والافراد كما فعل الامام عبدالقاهر الجرجاني(٢٠) ولقد قسم ضياءالدين المعروف بابـن الاثير التشبيه اقساما عديدة ، قسمه باعتبار ظهور الاداة وعدم ظهورها الى قسمين :

١ ــ تشبيه مظهر .

٢ ــ وتشبيه مضمر ، وقسم المضمر الى خمسة اقسام :

أ ــ تشبيه يقع موقع المبتدأ والخبر .

ب ــ تشبيه يقع مع المبتدأ المفرد وخبره جملـــة مركبة من مضاف ومضاف اليه .

جـ ــ تشبيه يقع موقع المبتدأ والخبر جملتين .

د ــ يقع هذا التشبيه على وجه الفعل والفاعل .

هـ ــ يأتي هذا القسم على وجه المثل المضروب .

وعند صفاءالدين بن الاثير ان القسمين الاخيرين اكثر الاقسام اشكالا في تقدير الاداة [٢١] ولابن الاثير تقسيم آخر باعتبار آخر ، فهو يقسم التشبيه الى اربعة اقسام :

١ ــ تشبيه بمعنى مثل : زيد كالاسد .

٢ ــ تشبيه صورة بصورة ، كقوله تعالى : (وعندهم قاصرات الطرف عين كأنهن بيض مكنون) .

٣ ــ تشبيه معنى بصورة كقوله تعالى : (والذين كفروا اعمالهم كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماء) .

٤ ــ تشبيه صورة بمعنى كقول ابي تمام :

وفتكت بالمال الجزيل وبالعدا فتك الصبابـة بالمحب المغرم

ولم يكتف المؤلف بهذا القدر من التقسيم ولكنه مضى علـى رسله في الطريق فقسم كل قسم من الاقسام الاخيرة الى اربعةاقسام اخرى باعتبار الافراد والتركيب[٢٢] .

ولم يكن القزويني في تقسيمه غير صدى للاصوات المتقدمـة عليه[٢٣] ، ولذلك فلا ارى بي حاجة للوقوف عنده .

ان من يمعن النظر في هذا التقسيم الذي اوردناه يجد انه لا يخدم البلاغة في قليل او كثير ، ذلك لانـــه يقوم على اساسين لا يصلحان للكشف عن مراتب التشبيه وبيـــان فاضله من مفضوله . هـذان الاساسان هما : التقسيم ، والمنهج التحليلي في المعالجة .

٣ ــ اعتبارات التقسيم :

لقد اصاب الرماني ايما اصابة اذ حصر التشبيه في قسمين كبيرين هما : تشبيه حقيقة ، وتشبيه بلاغة • ومعلوم ان تشبيه الحقيقة خارج عن موضوع البلاغة • وكان المرجو من الرماني ان يعمد الى تشبيه البلاغة فيقسمه الى مراتبه في الحسن والقبح ، ولكن شيئا من هذا لم يحصل • على ان الذي حدث معالجة التشبيه وفقا للمعايير الحسية والنفسية ولا شك ان هذه المعالجة غير مجدية في مضمار البلاغة •

ولو امعنا النظر في الاعتبارات التي اخذ بها العسكري في قسمته أو الاعتبارات التي أخذ بها ابن وهب والامام عبد القاهر والسكاكي وابن الاثير والقزويني لوجدناها منحصرة في هذه الاعتبارات :

١ ــ تقسيم الطرفين باعتبار الحس والعقل •
٢ ــ تقسيم الطرفين باعتبار الافراد والتركيب •
٣ ــ تقسيم وجه الشبه باعتبار الحس والعقل واحيانا باعتبار الافراد والتركيب •

٤ ــ تقسيم التشبيه باعتبار ظهور الاداة أو عدم ظهورها •

ومعلوم ان هذه الاعتبارات لا تصلح لبيان مراتب التشبيه ،ذلك لانها ليست من اختصاص التشبيه الرفيع وانه ليمر عليك كثير من التشبيهات تتفق في اعتباراتها وتتباين في مراتبها الفنية •

واذا كان هذا الامر صحيحا فما جدوى هذا التقسيم في ميدان البلاغة ؟ ليكن معلوما انه ليس الهدف حصر المقسوم حصرا مطلقا ولكن الهدف حصر المقسوم بما يلتئم وهدف البلاغة ، ومعلوم ان هدف البلاغة التعرف على الاساليب الرفيعة في الكلام ، ولما كان الامر كذلك فانه لا ينبغي لدارس البلاغة ان يشغل نفسه بما هو دون هذا الهدف الجليل •

ان هذا التقسيم الذي فشا في كتب البلاغة قديمها وحديثها

لا يصلح باي حال ان يتخذ وليجة للتعرف على مراتب التشبيه ، وان اعتباراته هي الاعتبارات التي لجأ اليها المتكلمون في تقسيم الوجود الى مراتبه المشتهرة : وجود وعدم ، واجب الوجود وممكن ، حادث، عرض ، جوهر .. الخ . وقد تدسست هذه الاعتبارات في ميدان الدراسات البلاغية ، لان رجال البلاغة المبرزين في مضمارها من المتكلمين ، وهؤلاء هم الذين رسموا للبلاغة منهجها .

هناك شيء آخر يبين قيمة هذا التقسيم من الناحية العملية ، لنفترض ان شاعرا او خطيبا .. تأثر بمشهد ما تأثرا عميقا وبلغ به التأثر حد التوهج العاطفي ، اتراه ، اذا اراد ان يعبر عن انفعالاته ، يضع قواعد القسمة نصب عينيه لكي يجري التشبيه عليها ام تراه يتكلم فيسوق التشبيه قبل ان يفكر في مثل هذه الامور ؟

لا اشك انه لو اشغل نفسه باحضار صنوف القسمة واعتباراتها لتبدد شطر عظيم من عاطفته ولاحس من نفسه الخذلان في التعبير عما يعانيه . واذا كان هذا كذلك فانه يمكن القول : ان هذا التقسيم واعتباراته لا تغني دارس البلاغة فتيلا من الناحية العملية .

هكذا يبدو التقسيم البلاغي للتشبيه كما هو في كتب البلاغيين خاويا من القيمتين النظرية والعملية . وما اجدر بدارس البلاغة المعاصر ان يشيح بنظره من هذه الامور ليمتع نفسه بما هو اجدى .

٤ ــ التحليل في معالجة التشبيه :

التشبيه كيان واحد تضامنت اجزاؤه على هيئة صور متناسقة العناصر . ومعنى هذا ان التشبيه ليس هو المشبه ، ولا هو المشبه به ، ولا هو وجه التشبيه ، ليس التشبيه واحدا من هذه العناصر ولكنه مؤلف من مجموعها .

ونحن لا نستطيع ان نتذوق التشبيه ، او نحكم عليه الا عند اجتماع عناصره . اتراك تستطيع تذوق جمال لوحة مصورة اذا غضضت النظر عن غالب اجزائها وامعنت في جزء واحد منها ؟

اتراك تستطيع المفاضلة بين مجموعة من الصور اذا نظرت الى لون مشترك فيها وحجبت النظر عما سواه ؟

فان كان ذلك متعذرا فليكن معلوما انه قد يتعاظم التعذر ويبلغ حد الاستحالة اذا اريد تذوق التشبيه او الحكم عليه من خلال طرف واحد من اطرافه .

واني اكاد اجزم ان بيان مراتب التشبيه وفقا للاعتبارات التي قام عليها التقسيم امر متعذر ، فالسعي وراء تلك الاعتبارات يقودنا الى منهج تحليلي لا يسمح بالنظر الا الى عنصر واحد من عناصر التشبيه ويترك العناصر الاخرى محجوبة عن النظر ، فالتشبيه هنا حسي وهناك عقلي وهذا مركب وذاك مفرد .. و .. ولا شك ان هذا المنهج يحول بيننا وبين تذوق التشبيه والحكم عليه .

ومما ساعد على شيوع المنهج التحليلي في المعالجة البلاغية سعي البلاغيين وراء المعنى المجرد وطرق ادائه[٢٤] .

انني لا احط من شأن الحرص على المعنى ولكني ارى ان الحرص على المعاني المجردة من شأن اللغوي ، اما البلاغي فيطلب المعنى وهو في طريقه للتذوق والحكم على النص .

واني أظن ان في دراسة البلاغيين لاغراض التشبيه أثرا واضحا للمنهج التحليلي ، ذلك لأنهم يجعلون الغرض للمشبه تارة وللمشبه به تارة اخرى ، والاغلب عندهم ان يكون الغرض عائدا الى المشبه ، كأن يكون لبيان حالة او مقدار حاله ، واما لبيان امكان وجوده ،او لتقوية شأنه في نفس السامع .. الخ ، وقد يعود الغرض على المشبه به ، كأن يكون في الايهام بانه اتم من المشبه في وجه الشبه[٢٥] .

ان ارجاع الغرض الى طرف واحد في التشبيه ـ المشبه أو المشبه به ـ يعني ان الطرف الآخر لا يؤدي دورا ايجابيا في التشبيه ، وان كان له دور فهو دور الوسيلة يستعان بها على تحيقق الغرض المرجو ، فان قلت : (زيد كالأسد) فان الغرض يعود لزيد ، اذ المقصود بيان

مقدار شجاعته ، والاسد وسيلة لتحقيق هذا الغرض .

وهذا يعني ان الانتباه متجه الى «زيد ، حيث الغرض ، اما الاسد فيبقى في حجز عن هذا الانتباه لافتقاره الى الغرض !

ومعنى هذا ان التشبيه لا يعامل معاملة واحدة ، لا يعامل معاملة الصورة المركبة التي تؤدي باجتماع عناصرها مضمونا واحـــدا . وهذه المعاملة هي من نتائج الاخذ بالمنهج التحليلي .

اكاد اجزم ان هذا المنهج يخالف طبيعة اللغة وطبيعة الفن ،اما انه يخالف طبيعة اللغة فلأن اللغة لا تؤدي وظيفتها الا في حـــالة التركيب ، واذا اريد فهم نص فلا يفهم الا وهو مركب فعبارة (زيد شجاع جدا) تعطي مضمونا عندما تجتمع مفرداتها فقط ، وهـــذه المفردات تعطي مضمونا واحدا واني ارى ان عبارة (زيد كالاسد) لا تختلف من جهة التركيب اللغوي من عبارة (زيد شجاع جدا) ، واذا كان محال عليك ان تفهم المضمون هناك الا في صورة التركيب فكذلك محال عليك ان تفهم مضمون التشبيه الا في صورة التركيب، واذا كان محال عليك ان تستخلص اكثر من غرض هناك فكذلـك محال عليك ان تفهم في التشبيه اكثر من غرض واحد .

واما انه يخالف طبيعة الفن فلأن الفن لا يكون الا بعد تركيب عناصره الاولى سواء كانت هذه العنـــاصر اصواتا او رخاما او ألوانا .. أو .. ولما كان التشبيه عبارة تستشرف منهـا الى تصـوير محدد المعالم . وان هذا التصوير يؤدي مضمونا واحدا فانه محـال عليك ان تزعم ان الغرض في التشبيه يعود الى هذا الجزء منه دون ذلك الجزء .

لقد افسد المنهج التحليلي مباحث التشبيه ايما افساد ، وانـا لا ازعم انه ليست هناك معالجات تركيبية ، ولكني ارى ان هـــذه المعالجات نادرة جدا (٣٦).

هذا هو الزمخشري ، وهو من ابرز المفسرين البيانيين ، قـد

يلجأ الى تفتيت النص وتحليله لماذا ؟ لانه يطلب المعنى وحسب :

(للذين احسنوا الحسنى وزيادة ولا يرهق وجوههم قتر ولا ذلة اولئك أصحاب الجنة هم فيها خالدون . والذين كسبوا السيئات جزاء سيئة بمثلها وترهقهم ذلة مالهم من الله من عاصم كأنما اغشيت وجوههم قطعا من الليل مظلما اولئك اصحاب النار هم فيها خالدون)[٢٧] .

قال الزمخشري رحمه الله : (ولا يرهق وجوههم) لا يغشاها (قتر) غبرة فيها سواد (ولا ذلة) ولا اثر هوان وكسوف بال ... ثم يمضي الزمخشري على رسله (ما لهم من الله من عاصم) اي يعصمهم احد من سخط الله وعذابه ، ويجوز ما لهم من جهة الله ومن عنده من يعصمهم كما يكون للمؤمنين (مظلما) حال من الليل[٢٨] .

هكذا تذهب روعة النص من خلال هذه المعالجة التحليلية ، وما اجدر برجل البلاغة ان ينظر الى عناصر هذه الصورة مجتمعة ، صحيح انه ليس في الآية الاولى التي تصف احوال المؤمنين تشبيه ، على ان القاء الضوء عليها يزيد التشبيه الذي تضمنته الآية الثانية جلاء ووضوحا كما يزيد اللون الابيض اللون الاسود في اللوحة المصورة وضوحا :

وفود المؤمنين الذين احسنوا في حياتهم ، وزمر الكافرين الذين اجترحوا السيئات في حياتهم ، اولئك وهؤلاء يموتون ، ولا فارق بينهم في هذا المصير المحتوم ، على ان البون العظيم بين الفريقين يظهر فيما ينتظرهم بعد الموت من حسن النعيم او بؤس العذاب .

لو جمعت ما بين حاجبيك ولمت شتات فكرك وأمعنت النظر في الآيتين لاحسست بمن هو في القمة ومن هو في الحضيض .

يا للعدل ويا للاحسان ! تمر امامك وفود المحسنين يجلوها ثواب الله واحسانه . ناصعة الوجوه لا يغشيها كسوف او هوان ..

الى اين ؟ الى الجنة : (اولئك اصحاب الجنة هم فيها خالدون) .

يا للعدل ! وهـــذه زمر الكافرين تمر امامك وقد اخـــذت بالعدل : (جزاء سيئة بمثلها) ، واحدة بواحدة ! على وجوههم اثر الذل والهوان ، ومما يزيد من هوانها وبؤسـها انها تشـعر بالخيبة والضعف ، ذلك انه ليس لها ناصر او معين : (ما لهم من الله مـن عاصم) .

ويأتي التشبيه في السياق فيضاعف بؤسهم اذ يجعل من سيئاتهم وهوانهم امزاعا من الليل الرهيب تغشي وجوههم .. ان في التشـبيه هنا قوة تقسر القارىء على الوقوف ليترك الخيال وشأنه في رسـم هذه الصورة !!.

ويسوق العدل هذه الزمر الى شر مكان ، (اولئك اصحـاب النار هم فيها خالدون) .

ان هذه المعالجة البلاغية توقفك امام جملة النص وتضطرك الى التذوق وتعرفك على رتبة الكلام في الشرف او الضعة .. ولا ارى بك حاجة بعد هذا الى ان تعرف المشبه لوحده والمشبه به لوحـده وانه حسي هنا عقلي هناك .. وما نفع هذه القشور بعـد ان حزت اللب ؟ وما جدوى سلوك الطرق الملتوية بعد ان هديت الى طريـق مستقيم ؟

ومن معالجات الزمخشري التحليلية قوله في الآية الكريمـه : (والذين يدعون من دونه لا يستجيبون له م بشيء الا كباسط كفيه الى الماء ليبلغ فاه وما هو ببالغه وما دعاء الكافرين الا في ضلال)[٢٩].

قال رحمه الله : (« الذين يدعون » والآلهة الـذين يدعونهم الكفار من دون الله « لا يستجيبون لهم بشيء » من طلباتهم « الا كباسط كفيه » لا استجابة كاستجابة باسط كفيه ، او كاستجابه الماء لمن بسط كفيه اليه يطلب منه ان يبلغ فاه ..)[٣٠] .

هذه المعالجة هي معالجة لغوية تحليلية يضيع معها وجه العبارة ،

وتذوب روعة التشبيه ، واذا اردت ان تتذوق التشبيه فانه يلزمك بان تقف من النص كما وقفنا من النص السابق ، وان تجنح نفسك عن التحليل الى النظر في التركيب .

في التشبيه اشارة الى صنف من الناس ينشدون العون في حياتهم من غير الله ، من الحجر او من البشر ..او..

والتشبيه لا يعرض المضمون بشكل مجرد ، وانما يعرضه في ثنايا صورتين ، فما تكاد الصورة الاولى ان تعبر الى مسرح خيالك حتى تدخل الصورة الثانية في لبوس جديد يؤكد المضمون الاول بطريقة تبعث على السخرية .

صنف من الناس اخطأ في اختيار الغاية والوسيلة : وقد بسط اكفه يطلب العون ممن لا يستطيع نفعا ولا ضرا ولا حياة ولا نشورا !! يطلب ويلح في الطلب بذلة ثم لا يحصل على شيء ..

وتأتي الصورة الثانية فتزيد المضمون عمقا ووضوحا ، ماذا هناك ؟ شخص غريب الاطوار متأثر في تفكيره يسلك سلوكا مضحكا! هذا الشخص قد احرقه العطش والماء اسفل منه ، وقد بسط كفيه يسأل الماء ان يصعد الى فيه ليطفيء جمرة عطشه !!

٤ ــ جمال التشبيه :

البحث في جمال التشبيه هو الميدان الذي تتبارى فيه الادواق والعقول . وكان على علماء البلاغة ان لا يشغلوا انفسهم بما دون ذلك ولكن غالبهم رضي بالدون فلم يعبأ بهذه المهمة الجليلة قام البلاغيون بمحاولات اولية لتفسير حسن التشبيه وقبحه ، كقولهم : التشبيه الحسن هو الذي يخرج الاغمض الى الاوضح ، والاصغر الى الاكبر ، وغير المألوف الى المألوف ، وما يعلم بالفكرة الى ما يعلم بالفطرة .. واذا جاء التشبيه على عكس هذه الاوصاف فانه قبيح لا محالة (٣١) .

انا لا انفي ان في خروج الاغمض الى الاوضح فيه متعة ،

لا انفي ان يكون لهذه الامور التي عددها البلاغيون اثر في الاحساس الجمالي ، ولكني انفي ان تكون هذه اسبابا جمالية . ذلك لانها اذا اعتبرت كذلك فان حضورها يعني حضور الجمال بالضرورة ، ولا شك ان في هذا الحكم تعسف كبير نعلمه من تجاربنا الجمالية ، فقد يخرج الغامض الى الواضح ويساق غير المألوف الى المألوف و ... ثم لا نشعر بالجمال بل قد نشعر بالغثاثة والقبح ..

الذي اتصوره ان جمال التشبيه يتأتى من جانبين : احدهما المرموز اليه بالتشبيه ومن وقائع ومشاهدات طبيعية او نفسية ، وثانيهما ما يصاحب تلك الوقائع والمشاهدات من عواطف وانفعالات .

واذا اردنا الحكم على جمال تشبيه فانه يلزمنا ان ننظر الى عناصر الوقائع والمشاهدات المصورة وما بين تلك العناصر تناسق ، ومدى مراعاة التشبيه لابعاد الواقع وما يثيره فينا مشاهد التصوير من عواطف وانفعالات .

وثمة شيء آخر ، وهو ان يدرس التشبيه في ضوء العبارة التي قبله والتي بعده ذلك لان التشبيه يتأثر بما قبله ويؤثر بما بعده ، ولا شك ان لهذا التأثير دخل كبير في الاحساس الجمالي .

وهناك شيء آخر ، وهو ان ينظر الى التشبيه من حيث هو مادة لغوية فاللغة في الادب كالالوان والرخام في الرسم والنحت ، وكل لفظ في اللغة له دلالة قبل التركيب وبعد التركيب ، على ان للتركيب اثر قوي في تحديد مدلول المفردات .

ولذلك فقد صار لزاما على البليغ ان يراعي دلالات اللغة في شعره ونثره ، وان لا يخرج على قواعد النحو والصرف ، فان الخروج على هذه القواعد يقود بالضرورة الى طمس معالم المضمون.

الهوامش

(١) فيض الفتاح جـ ٤ ص ٣-٤ . وهذه هي عبارة القزويني ، انظر الايضاح جـ ٢ ص ٢١٢ تحقيق لجنة من اساتذة كلية اللغة العربية بالجامع الازهر مطبعة السنة المحمدية .

(٢) فيض الفتاح جـ ٤ ص ٦ .

(٣) لقد فصلت القول في هذا في كتاب تأثير الفكر الديني في البلاغة العربية . رسالة دكتوراه ، الفصل الاول من الباب الاول .

(٤) ثلاث رسائل في اعجاز القرآن ـ رسالة النكت ص ٧٤ .

(٥) كتاب الصناعتين ص ٢٣٩ .

(٦) العمدة في صناعة الشعر والنثر جـ ١ ص ١٩٤ مطبعة السعادة .

(٧) الايضاح جـ ٢ ، فيض الفتاح جـ ٤ ص ٤٣-٤٤ .

(٨) الايضاح جـ ٢ ، فيض الفتاح جـ ٤ ص ٤٤-٤٥ .

(٩) انظر نقد الشعر ص ١٢٢ .

(١٠) ثلاث رسائل في اعجاز القرآن . رسالة النكت في اعجاز القرآن ص ٧٥ .

(١١) الصناعتين ص ٢٤٠ .

(١٢) البرهان في وجوه البيان ص ١٣٠-١٣١ .

(١٣) اسرار البلاغة ص ٨٢ .

(١٤) المصدر نفسه ص ٨٢ .

(١٥) المصدر نفسه ص ٨٢ .

(١٦) المصدر نفسه ص ٨٣ .

(١٧) اسرار البلاغة ص ١٦٨ .

(١٨) المصدر نفسه ص ١١٠ .

(١٩) مفتاح العلوم ص ١٥٨ .

(٢٠) مفتاح العلوم ص ١٥٨ .

(٢١) المثل السائر جـ ١ ص ٣٨٨-٣٨٩ .

(٢٢) المصدر نفسه جـ ١ ص ٣٩٧-٣٩٨ .

(٢٣) الايضاح جـ ٢ ص ٢٩٥-٢٩٦ .

(٢٤) نشأت علوم البلاغة العربية بتأثيرباعثين دينيين : اولهما شرعي يهدف الى ادراك المعاني والاحكام ، وهذا الباعث هو أساس الاتجاه العلمي في البلاغة . وثانيهما : إعجازي يهدف الى الكشف عن جمال وسر اعجاز العبارة القرآنية . وهذا الباعث اساس الاتجاه الادبي في علم البلاغة . وقد فصلت هذه الامور في كتاب (تأثير الفكر الديني في البلاغة العربية) .

(٢٥) مفتاح العلوم ص ١٦٢-١٦٣ ، الايضاح جـ ٢ ص ٢٣٦-٢٤١ .

(٢٦) عالج الرماني قوله تعالى (والذين كفروا أعمالهم كسراب ...) معالجة تكاد تكون تركيبية ، انظر : ثلاث رسائل في اعجاز القرآن رسالة النكت ص ٨٦١ .

(٢٧) سورة يونس الآيتان ٢٦ ، ٢٧ .

(٢٨) الكشاف تفسير سورة يونس .

(٢٩) سورة الرعد الآية ـ

(٣٠) الكشاف جـ ٢ ص ١٦٢ .

(٣١) الصناعتين ص ٢٥٧ ، العمدة في صناعة الشعر والنثر جـ ١ ص ١٩٥-٢٨٧ . والايضاح جـ ٢ ص ٢١٦-٢١٧ .